شهاب عبدالرزاق عبدالله

سُكرًا

شهاب عبدالرزاق عبدالله

سُكرًا

رواية

سُكرًا

العنوان: سُكرًا

الكاتب: شهاب عبدالرزاق عبدالله

التصنيف: قتل

سنة النشر: ٢٠٢٤

هـ: ٩٥٩٦٢٩٢٤٤ (٩٦٣+)

التصميم والإخراج الفني: سهاب المايوي

إهداء

إلى من يهمّه الأمر

المقدمة

كنتُ سأكتب المقدمة
لكنَّنتي واثقٌ بأنَّك لن تفهمها
لذا
اقرأ أوّل ثلاثون صفحة
ستفهم المقدمة

ـ ماذا؟! أربعة سنوات؟!

ـ لستَ مضطرًّا لانتظاري.

صمتٌ برهة ثمَّ تابعت بكلِّ جديةٍ وحب:

ـ مخطئة، أعترف بأنَّني أكره الانتظار كثيرًا، لكن رغم كرهي الشديد للانتظار، سأنتظرك، سأنتظرك العمر بأكملهِ ولن أتخلَّى عنكِ، لكن في الوقت ذاته، أخشى أن لا تفعلي ذلك أنتِ.

ـ الأمر بغايةِ البساطة، أنتَ لن تتزوَّج فتاة غيري، وأنا لن أقبل بأحد غيرك.

نظرتُ إليها وكم تمنَّيتُ أن أعانقها في تلك اللحظة، ولكن أُمنياتي دائمًا لا تتحقَّق، تبقى مدفونةٌ داخل قلبي إلى الأبد، اكتفيتُ بالنظر إلى عينيها دونَ أن أنطق بحرف، وسرعان ما تحوَّل المشهد حولي، من حُبٍّ إلى حرب، ومن نورٍ إلى ظلام، تغيَّرَ المكان، التاريخ، الأشخاص، كلِّ شيء، لكنَّني لا زلتُ أراها، إنَّها هنا، في كلِّ مكان.

تغيَّر المكان، التاريخ، الأشخاص، كلِّ شيء، جاثيًا على ركبتاي، يداي مُقيَّدتان إلى الخلف، ووجهي مليءٌ بالدماء، في غارٍ كبيرٍ حالك الظلام، أصرخ:

ـإنَّني أموت.. هل من أحدٍ هنا؟.. أيُّها الـ...

ركلةٌ لئيمةٌ دفنت نفسها في وجهي ليقرع رأسي في القاعِ ويمتلئُ فمي بالدماء، أغمضتُ عيناي من شدَّةِ الألم، أخذتُ نَفَسًا عميقًا ثمَّ شققتُ عيناي بابتسامةِ الانتصار.

ـلماذا تصرخ أيُّها الوضيع؟

قال ذلك بتعجرفٍ بصوته الضخم؛

بصقتُ نصف سنّي الذي انكسر أثر الضربة وأجبته بصوتٍ متعب:

ـيوجد أفعى هنا، كادت أن تلدغني.

انتفض من مكانهِ وبدأ يتلفَّتُ يمنةً ويسرة باحثًا عنها قائلًا بخوف:

ـأين؟... أين هي؟.

أظهرتُ له ابتسامتي المخيفة بأسناني الغارقة بدماؤها وأجبته ببرودة:

ـ إنَّها تلتفُّ على رقبتك الآن.

ركلةٌ لإرسالِ بندقيَّتهِ بعيدًا، وركلةٌ أخرى جعَلَته يعانق القاع، لم أدع له الفرصة ليستنجد بأحد أو يفعل شيء، كانت قدماي كفيلتان بفعلِ الكثير، تبادلنا الأدوار، بعدما أرسلت روحه إلى قاعِ الجحيم، بسكِّينتهِ فصلتُ رأسه عن جسده، أنا حرٌّ الآن، وأملكُ سلاحان، سكِّينةٌ وبندقية، كفيلتان على شنِّ حربٍ عليهم، لكنَّني بارعٌ في التسلُّل، خرجتُ من هناك كالظلِّ وتلاشيتُ في الظلام، أنا حرٌّ الآن.

دائمًا ما أصبرُ على كلِّ شيءٍ إلى أبعدِ الحدود، لكن حينما تأتي الفرصة، لا أضيّعها، مرَّة واحدة فعلت..

بعدَ خمسة أشهر من الغياب الذي حدث على حينِ غرَّة، قرَّرتُ لقاؤها، لم أعد أحتمل أكثر، اشتقتُ إليها كثيرًا، لكن في ذلك الوقت، أنا من صنع تلك الفرصة، جهَّزتُ كل شيء، الزمان، المكان، الكلام، حتَّى رجفة قلبي كانت جاهزة، ذهبتُ إلى مكان اللقاء قبل ساعتان تقريبًا، انتظرت، كنتُ أرسمُ اللقاء في مخيّلتي، والحوار الذي سيدور بيننا، وكنتُ أرى وجهها في كلِّ فتاةٍ آتيةٍ نحوي، أشعرُ بالخيبة عندما تتخطَّاني وتكمل طريقها، لكن حينها أعلم بأنَّها ليست هي، أعود لابتسامتي، وأكمل انتظاري، وها هي الآن، لقد أتت، أقسمُ بأنَّها هي، عيناي لا تصدّق ما تراه، لكنَّها هي، رأيتها بعينِ قلبي، إنَّها آتية إلي، ازدادت نبضات قلبي، وأصبحت أسرع، ولكن، فجأةً، دون سابق إنذار، انطفئ هذا القلب، لم يعد هناك نبضات، لم يعد هناك روح راقصة، لم يعد هناك شيء يدعو للفرح...

كانت الخيبة الأكبر حينما تخطتني وكأنَّها لم تراني قط، أصبحتُ أرى كل شيء مظلمًا، كل شيء باهتًا، بلا ألوان، ما بكِ يا عزيزتي؟! ألم تتعرَّفي على ندوبِ وجهي؟! وعلى شحوبةِ عيناي؟! ألم تتعرَّفي على ألمِ خاصرتي؟! وعلى عجزِ يدي؟! ألم تتعرَّفي على قلبي المنطفئ؟! وعلى روحي المتعبة؟! ألم تتعرَّفي علي؟! ما بكِ يا عزيزتي؟! ألم تتعرَّفي علي؟! أنا شهاب.

كذلك كنتُ أصرخ في الفضاءِ الداخلي، لا أحد يسمعني سوى نفسي، حتى عندما فتَّتت قلبي وتخطَّتني، لم ألتفت إليها، بقيتُ هكذا، وكأنَّني لم أكن أنتظرها، وكأنَّني كنتُ أنتظر شيئًا آخر، وكأنَّني "لستُ أنا".

لم يمضي على إنفلاتي منهم سوى ليلة واحدة، وبما أنَّني أحبُّ مفاجئة العدو كثيرًا، يتوجَّب علي أن أهجم الآن، يجب علينا دائمًا فعل الأشياء الغير متوقعة، وفي الوقت الغير متوقع، أنا بالنسبةِ لهم شخصٌ جريحٌ يحاول الهروب والاختباء، وهذا وقتٌ رائعٌ للمفاجئة.

لم يتطلَّب الأمر منّي سوى خمسة قنابل متفجِّرة وجهاز تحكُّم عن بعد، وبالطبع مسدَّسي رفيقي الدائم الذي لا يمكنني التخلِّ عنه، وحتَّى لا يتم إيقافي أثناء خروجي من المدينة من قِبل الشرطة، ارتديتُ زيٌّ عسكريٌّ ممزوجٌ بلونِ الصحراء، ليساعدني أيضًا باختفائي في منطقة العدو.

انطلقتُ عند التاسعة مساءًا، غادرتُ المدينة قبل إغلاق الطرقات وتشديد الحراسة الأمنيَّة، كانت الشوارع مزدحمة بالأشخاص والأطفال والعائلات السعيدة، هناك شاب بنفسِ عمري تقريبًا كان برفقةِ عائلته، وهناك آخر يتناول المثلّجات برفقةِ أصدقاءه، وهناك من يشتري هديَّةٍ لحبيبته، وآخر يحمل حقيبة مدرسيَّة، توقَّفتُ للحظةٍ وسط هذه الضوضاء ونظرتُ إلى حقيبتي المليئة بالمتفجّرات، ثمَّ سألتُ نفسي بتشتّتٍ وضياع:

_إلى أين أنا ذاهب؟

صمتٌ برهة ثمَّ أردفت بقوَّةٍ وبقلبٍ ميّت:

_أنا ذاهبٌ للموت الآن.

_

كان موعد التفجير في تمام الساعة الرابعة فجرًا، وصلتُ إلى هناك في الثانية بعد منتصف الليل، زرعتُ القنابل حول الغار على شكل شهر مايو، كان الأمر صعبٌ قليلًا، لكنَّهُ ممتعٌ بعض الشيء، فأنا أعشق لذّة الانتقام.

تبقَّت دقائق قليلة على هبوط سيدنا عزرائيل على هذه الأرض اللعينة، سيكون لديه عمل شاق سببه أنا هذه الليلة، إنَّني أعتذر منكَ يا ملك الموت ولكن.. لا يوجد راحة على هذه الأرض.

بعيونٍ باردة، وبقلبٍ سوداوي، ضغطتُ على زرِّ موتهم لتتطاير أشلاء أجسادهم في الهواءِ المشتعل بنارِ الانتقام، اندمجت متفجِّراتي مع أسلحتهم وقنابلهم وصواريخهم ممَّا أدَّى ذلك بتضخيمِ الانفجار عِدَّةِ أضعاف، ابتسامةٌ حقيرةٌ ترتسمُ على وجهي برؤيةِ روعة هذا المشهد الشيطاني، ورأسٌ بشريٌّ يسقطُ بينَ قدماي برعبٍ مضحك، بدأت ضحكاتي تتصاعد بصوتٍ تدريجيٍّ إلى السماء بصدى، ساد الصمت بالمكان ثمَّ نطقتُ بحقدٍ حارق:

_"لن ينجو أيَّ شيءٍ منكم".

استجمعتُ كل طاقتي بقدمي اليسرى ثمَّ ركلته بكاملِ قواي نحو الحريق كمَن يركلُ كرةٍ نحو المرمى.

شعرتُ بالدورانِ قليلًا وضيقٌ بالتنفُّسِ بسببِ مرضي الذي رافقني منذ الطفولة، حملتُ حقيبتي وتسكَّعتُ على نفسي حتى وصلتُ المنزل، هو ليس بمنزلٍ لكنَّهُ شيئًا من هذا القبيل، دخلت، فتحتُ باب غرفتي ببطء، كلٌّ شيء كما هو، كلٌّ شيء في مكانه، لم يتغيَّر شيء، أريكتي التي أنامُ عليها، والمروحة السقفيَّة التي تدور ببطء، وبجانبها حبلٌ جميلٌ آتيًا من السقف نهايته دائرية عديمة الرحمة، شممتُ رائحة كتبي القديمة، وألقيتُ السلام على العنكبوت الذي يرقد بزوايا الغرفة، ثمَّ رميتُ حقيبتي جانبًا، وحتَّى دونَ أن أخلع حذائي، ألقيتُ بجسدي على الأريكة واستسلمتُ للنوم.

كانت ليلةٌ مُتعِبةٌ حقًا، لكن كما قلت..

"أنا أعشق لذَّة الانتقام".

_هل أنتَ مرتاح الآن؟ هل أنتَ سعيد الآن؟ هل أنتَ في مزاج جيّد الآن؟.

أيقظتني هذه الكلمات دونَ أن أعلم من القائل، ومن يكون؟! فمنزلي طوال الوقت فارغ، شققتُ عيناي ببطءٍ متعب لأرى من، وإذ هي..

انفجرت عيناي من رعبِ هذا المشهد القاتل، الدماء تسيل من كلِّ مكانٍ في جسدها، دفعتُ نفسي بقوَّة نحوها، لكن ماذا يحدث؟! جسدي بأكمله مُقيَّدٌ بسلاسلٍ حقيرة ولا يمكنني الحراك، تتقدَّم إلي ببطء وتكمل كلامها:

_إن كنتَ هكذا مرتاح.. فأنا مرتاحة أيضًا.

ثمَّ اقتربت إلي أكثر وهمست في أذني:

_سُكرًا.

صراخ حنجرة مكسورة الظهر يملء المكان وبكاء حارق فريد من نوعهِ بلونهِ الأحمر يخرج من عيناي بألم...

"ما الذي يجري؟!".

لكن فجأةً، تلاشى كلُّ شيء، استيقظتُ مرَّةً أخرى، استيقظتُ وأنا ألهث، كابوسٌ لعين، كان كلُّ شيء مجرَّد وهم، لكن شيئًا ما لم يكن كذلك،
بكائي... كان حقيقي.

مزَّقتُ الستائر، حطَّمتُ طاولة الكتابة، اقتلعتُ مكتبتي من الحائط ودفنتها في القاع، اخترقتُ زجاج النافذة بقبضة يدي ثمَّ أمسكتُ سكّينتي وبدأتُ بطعنِ تلك الأريكة اللعينة بصراخي الأليم، وبعدما انتهيت، جلستُ على القاع، وسندتُ رأسي عليها، وبدأت روحي بالبكاء.

مضَت ساعات وأنا هكذا، دونَ حراك، أرقد باختناق، حزينٌ، أتصبَّبُ عَرَقَ، ألملمه وأجمعه بقدحٍ زجاجيٍّ مكسور، ثمَّ أشربه، وأسكر به، وأعزف لحن صراخ الأرواح المشتاقة.

ساعةٌ تلوَ الأخرى، انتهى النهار، ذهبت الشمس إلى مكانٍ آخر، وأتى الليل بظلامه الذي هو بالحقيقة عبارة عن منصة إعدام.

نعم، هو منصة إعدام، يحتوي على حبلِ مشنقة عديم الرحمة، يلفُّ حبله حولَ عنق كلُّ مُفارق، كلُّ مُشتاق، وكلُّ مُنسِي، ثمَّ يقتله.

لقد لفَّ حبله على رقبتي منذُ عامان، لكنَّني لم أمُت، وهذا أسوء ما في الأمر.

قتلتُ كآبتي، نفضتُ غبار الحزن من على جسدي، وتناولتُ مُسدَّسي، ثمَّ عانقتُ سكّينتي وخرجتُ لأكمل ما لم أكمله.

كانَ البناء مُحاطٌ بالحرسِ ذاتَ البدلة السوداء، لا يمكنني الدخول باستعمالِ القوَّة، ولا حتَّى تسلُّل، ولا يمكنني إصابة الهدف من الخارج، ولا حتَّى جعله يخرج لكي أطلق عليه، ماذا أفعل؟ ما الحل؟

وجدتها، لماذا أعقّد الأمور؟! يمكنني الدخول بطريقةٍ أكثر من عادية، كأي شخصٍ عائد إلى منزله، من الباب الرئيسي تمامًا، لكنَّني أحتاجُ إلى سيارةٍ حديثة الطراز، أريدُ سيارة الآن.

وبعدما سرقتُ السيـ... عفوًا لقد استعرتها من أحد الشوارع لم أسرقها، حتَّى أنَّني كتبتُ رسالة اعتذار لصاحبها حتَّى لا يشتمني أو يلعنني لأنَّني شخصٌ خلوقٌ ولا أحب استعمال هذه الكلمات السيئة.

فتحتُ درج السيارة حتَّى أضع ورقة الاعتذار به، وأثناء ذلك، وقعَ نظري على آلةِ الغناء التي هي بجانب الدرج، حينها راودني شعورٌ تافه قليلًا وطفولي بعض الشيء، لكنَّهُ ممتعٌ نوعًا ما، دونَ تردّد، وصلتُ هاتفي بمضخّم الصوت مُباشرةً عبر البلوتوث، ثمَّ اخترتُ ملف ذلكَ الرجل الكُمبالي الذي يملك أجمل احساس بعالمِ الغناء "رشاد كُمبال" ووضعتُ تلك الأغنية الجنونيَّة "Road Trip" ثمَّ انطلقتُ بسيارتي الجميلة التي ليست لي لأعِش قليلًا بعالمِ السعادة وآخذ جولة صغيرة بها داخل المدينة، وبعدَ دقائق قليلة، انتهت الأغنية، وأنتهيتُ أنا أيضًا.

تساؤلات عديدة تتجوَّل وتبكِ في رأسي:

_ماذا لو كنَّا معًا الآن؟

ماذا لو تحوَّلت هذه اللحظة القصيرة التي عشتها لليلة كاملة من السعادة؟

كيفَ سيكون شعورك حينها؟

ما الذي سيحدث لو كنتِ بجانبي؟

تمسكين بِيَدي،

وأمسكُ بِيَدك،

ونبقى هكذا حتَّى تعود الشمس مجددًا،

حينها سأتمنَّى بألَّا تعُد،

فليتوقَّف الزمان،

ونَعِش حياتنا،

أنا وأنتِ،

مع بعضنا البعض،

إلى ما لا نهاية.

ضغطتُ على الزر الذي يعيدني إلي، واتَّجهتُ مُباشرةً إلى هدفي الرئيسي، يجب أن أنتهِ منه الليلة، لقد عاشَ طويلًا.

بهدوء، تقدَّمتُ بسيارتي نحو الباب الرئيسي داعيًا الدخول، كان يوجد شخصان هناك يحرسان الباب، ولحسنِ حظِّي كانوا أغبياء، مددتُ رأسي من نافذةِ السيارة ونطقتُ بصوتٍ جدِّيٍّ وعالٍ قليلًا:

_ما بكم يا هذا؟ هيا افتحوا الباب.

تبادلا نظرات الاستفهام تلك ثمَّ تقدَّم أحدهم إلي بجسده الضخم قائلًا:

_المعذرة سيِّدي لكن... من أنت؟!

_ماذا؟! أتسألني من أنا؟! هل أنتَ تعمل حديثًا هنا أيُّها الغبي؟ لا أذكر بأنَّني قد رأيتك من قبل.

_رجاءًا سيِّدي، أجب على سؤالي وإلَّا استعملتُ القوَّة.

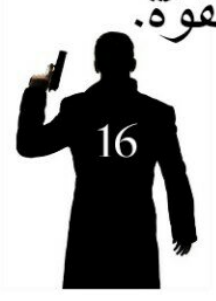

قال ذلك وهو يضع يده على مُسدَّسه الذي يسكن خصره، لكنَّهُ لا يعلم بأن مُسدَّسي بيدي جاهزٌ للقتال؛

أجبته بنبرة صوتي ذاتها وكأنَّني لم أُبالِ بما قاله:

_ماذا؟! أتهدّدني؟!

مددتُ رأسي من النافذة مجددًا وناديتُ الغبي الثاني بصفةِ أمر:

_أنت، تعال إلى هنا.

أتى إلي دونَ أن يعلم أي شيء بالحوار الذي دار بيني وبين الغبي الأول، وفي لحظة وصوله، وقبل أن ينطق، فعلتُ هذا أنا موجِّهًا كلامي إلى الغبي الأول:

_انظر، انظر كم هو جيّد في عمله.

التفتُّ إلى الغبي الثاني وأمرته مجددًا:

_اخبره، اخبره من أنا.

وقبل أن ينطق بحرف، أردفت:

_أو أنا من سيخبره.

أعدتُ نظري إلى الغبي الأول وقلتُ له بكبرياء وغرور:

_الشخص الذي تحرسه الآن، هو والدي يا هذا، أي أنتَ تعمل لدي الآن.

ثمَّ عدتُ إلى الغبي الثاني:

_هل لديك ورقة وقلم؟

_أملك قلم لكن.. أعتذر سيِّدي لا يوجد لدي ورقة.

_لا بأس سأعطيك ورقة من عندي.

فتحتُ درج السيارة وتناولتُ رسالة الاعتذار تلك، ثمَّ شققتُ نصفها الفارغ وأعطيته إيَّاها قائلًا:

_امسك، دوّن اسم هذا الغبي الكامل على هذه الورقة ثمَّ أدخلها إلى أبي بعد نصف ساعة من الآن ليقوم بطرده.

نطق الغبي الأول يتوسَّل إلي:

_سيدي أرجوك، لم أكن أعرفك.

_اصمت.

صرختُ بوجههِ هكذا ثمَّ التفتُّ إلى الغبي الثاني وقلت:

_نفّذ ما قلته لك، كم الساعة الآن؟

_إنَّها بقرابةِ العاشرة سيِّدي.

_جيّد، هل أبي مستيقظًا الآن أم أنَّه ينام باكرًا؟

_غالبًا هو نائم الآن سيِّدي.

_حسنًا، هيا افتح الباب.

أثناء عبوري الباب أشرت له بيدي ليأتي إلي، ثمَّ قلت بعدما انحنى وأخفضَ رأسه عند نافذة السيارة:

_ما سأقوله لك الآن خطير جدًا وسرِّيٌّ للغاية، اسمعني وركّز جيِّدًا.

_أمرك سيِّدي.

ثمَّ أردفت:

_والدي مستهدف بالقتل، هناك قاتل خطير عديم الرحمة سينفّذ العمليَّة الليلة، لذلك أنا هنا، انتبهوا جيِّدًا وابقوا على حذر، إيَّاكم والاستهانة به..

فهو شخص متلاعب.

حينها قال لي بكامل ثقته:

_من يقترب منه سأقطّعه إربًا سيِّدي.

_هذا واضح، لقد أعجبتني، سأقول له بأن يرفع لك مكافئة ماليّة.

_شكرًا لك سيِّدي.

_ابقِ الباب مفتوحًا، سأنتهِ وأخرج بسرعة.

_أنا تحت أمرك سيِّدي.

تقدَّمتُ قليلًا إلى الأمام ثمَّ أردفت وأنا أخرج من السيارة:

_أحمقان، أبي الحقيقي في منزله..

وغالبًا يشرب الشاي الآن.

غادرتُ السيارة مُتَّجهًا نحوَ باب البناء الداخلي، فتحتُ الباب ودخلتُ بهدوء وكأنَّني أستعمل الزيتسو، صعدتُ الطابق العلوي ثمَّ بدأت بالبحث عن غرفة الهدف، ولكن كل الدلائل تشيرُ إلي بأنها هنا؛ الاهتمام الزائد في الطريق إليها، موقعها المميز عن البقيَّة، بابها المزخرف، والكثير من الأشياء الأخرى، فتحتُ الباب إلى منتصفه ثمَّ سرقتُ نظرة سريعة عمَّا في داخلها، لا يوجد غيره، على السرير، غارقًا في نومه؛ تقدَّمتُ إليه بتلكَ الخطوات الخفيَّة ثمَّ بدأتُ بايقاظهِ بأصابعِ يدي بصمت، فتح عيناه ببطء، ثمَّ انفجرا خوفًا وكأنَّهُ رأى عزرائيل أمامه وليس أنا.

أتى ليصرخ، لكن سرعان ما أغلقتُ فمه بيدي، بدأ باصدار ذلك الأنين المؤلم ثمَّ أمسك يدي الخانقة بيداه محاولًا التخلُّص منها، لكن لا جدوى، فهذه ليست قواي بمفردها فقط، بل قوى جميع الأشخاص الذي كان سبب في قتلهم،

ثمَّ نطقتُ بكامل هدوئي:

_أتعلم لِمَ قمتُ بايقاظك قبل أن أقتلك؟ اوه نسيت بأن يدي تمنعك من التكلُّم، سأساعدك وأخبرك أنا..

في إحدى الليالي التي مضت، كنتُ أنا بمكانك، وأنتَ بمكاني، أتذكر ما هو الوعد الذي قطعته لك؟

"أنا آخر شخص ستراه في حياتك"

أيقظتك لأنَّني لا أخلف بوعودي.

سكِّينتي كانت تنتظر بحماس في يدي الأخرى، وبضربةٍ واحدة فائقة السرعة.. قطعتُ عنقه وأوفيتُ بوعدي له.

كان منظره جميل جدًا وممتعٌ نوعًا ما، ولكن علي مغادرة المكان بسرعة، فالوقت يداهمني.

كتبتُ رسالة موت بدماءِهِ ثمَّ رميتها على فراش موته وغادرتُ موقع الجريمة مسرعًا نحو الخارج.

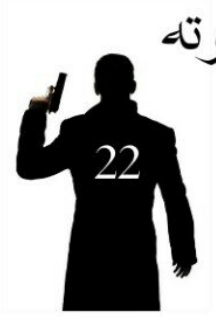

استقلّيتُ سيَّارتي وكان الباب الرئيسي مفتوحًا كما خططت، أدرتُ المحرك، وبأقصى سرعة.. انطلقتُ من مكاني نحوَ بر الأمان.

"سأكتب كل يوم رسالة موت، بدماءٍ حقيقيَّة، وبقلبٍ سوداوي، وبيدٍ بريئة مُبلَّلة بآثار الانتقام الحمراء"

أثناء خروجي من الباب الرئيسي، بالسرعةِ التي انطلقتُ بها، ربَّما دهستُ أحد هذان الغبيان لا أعلم لكن.. شيئًا ما ارتطم بالسيارة، لكن لِمَ أتحدَّث عنه؟! فليحدث ما يحدث، فليمُت لا يهم.
كان بامكاني تجنُّب هذا والخروج بهدوء كما دخلت ولكن.. أريدُ أن تهتز المدينة بأكملها وتستيقظ على وقوع هذه الجريمة المروعة.

"لن تناموا بسلام طالما أنا حزين"

ابتعدتُ مسافة أمان عن المكان، أعدتُ السيارة إلى مكانها وكدتُ أغادرها لكن شيئًا ما أوقفني.. فتحتُ الدرج وأمسكتُ رسالة الاعتذار تلك، أخرجتها من الظرف ثمَّ مزَّقتها إلى قطعٍ صغيرة بحيث لا يمكن لأحد أن يقرأ ما قد كُتِبَ عليها، وبكلِّ برودةِ أعصاب، أعدتها إلى ظرفها، ثمَّ الدرج، ثمَّ أغلقتُ باب السيارة وغادرتُ المكان وكأنَّ شيئًا لم يكُن.

الساعة الحادية عشرة الآن، بعد مرور ثلاثون دقيقة أصبحتُ خارج المدينة، لكنَّني لم أصِل بيتي الآخر بعد، يحتاج الأمر قرابة الثلاثة ساعات.

مضت هذه الساعات الثلاثة بتعبٍ وشوقٍ إلى النوم، لكنَّها مضت، حان وقت الراحة، دخلتُ المنزل، ويا له من منزل، لا يوجد منزل، فقط جدران، مهترئة، سوداء، تم إحراقها الليلة...

لا يزال الدخان يخرج من غرفتي، ببطءٍ وهدوء، فتحتُ باب الغرفة، لكن بدلًا من أن يذهب يمينًا أو يسارًا.. ذهب إلى الأسفل، كل شيء يحدث كان طبيعي، بل أكثر من ذلك، بقيتُ هادئًا، كما أنا، لم أستغرب أو أتفاجئ، فقد اعتدتُ هذه الأمور، وكما قال "فيودور دوستويفسكي": «إنَّ الإنسان يعتاد كل شيء، يا له من حقير»

تركتُ كل شيء كما هو وفي طريقي إلى المغادرة، ولكن أثناء ذلك لمحتُ شيئًا تمَّ رسمه حديثًا على الحائط، إنَّها رسمة سلحفاة، على ماذا تدل؟! ولِمَ تمَّ رسمها؟! أيُعقل بأنَّها...؟؟

سأفكّر في هذا فيما بعد، علي المغادرة الآن، لكن إلى أين؟! إلى غار "S.S.H".

لا يبعد كثيرًا من هنا، سأذهب سيرًا على قدماي، رغم أنَّني مُتعبٌ جدًا لكن.. لا أعلم ما الشيء الذي جعلني أختار هذه الوسيلة.

كنتُ بطيئًا بالمشي، كعجوزٍ في نهايةِ عمره، كأوراقِ الخريف البائسة، كمعزوفةِ شوبان، أو كرجلٍ مبتور القدمين في صحراءٍ لا بدايةٍ لها ولا نهاية.

وصلتُ أنا والشمس سويًّا، هي ذهبت لتزور العالم، وأنا دفنتُ نفسي أسفل هذه الجبال؛ دخلتُ الغار، كان كل شيء جميلًا ومؤلمًا، ذكريات كثيرة، منها سعيدة، ومنها حزينة، منها جميلة، ومنها قاتلة، هنا ضحكنا، وهنا متنا...: "هنا ماتوا أصدقائي"... لكنَّهم لا يزالون هنا، في كلِّ مكان، لا زلت أشمُّ رائحتهم، لا زلت أرى صورهم، وأسمع ضحكاتهم، ببطء، تقدمتُ نحوَ الكرسي الخاص بي، الذي كنتُ أجلسُ عليه قبل موتي، لم يكن يوجد غيره في الغار، ولم يكن يجرؤ أحد على الجلوس عليه، كنتُ أعاقبهم إن فعلوا، وكُنَّا جميعنا نضحك على الشخص المعاقب، كانت تلك الأيام جميلة رغم قسوتها، ليتها تعود.

ألقيتُ بجسدي على الكرسي لتنتفض غبار الموت من عليه بمشهدٍ سوداوي، شعرتُ بالدوران قليلًا، تسلَّلَ الحزن إلى عيناي، والكآبة احتلَّت وجهي بالكامل، اتَّحدَ النعاس مع تعبي ليغلبني، استسلمتُ لهما.. ونمت.

استيقظتُ على صوتها:

_أأنتَ بخير؟

مَسَحَت الدمعُ من أسفلِ عيناي بيدها الناعمة ثمَّ عادتها مجددًا:

_أأنتَ بخير؟

نظرتُ إليها كطفلٍ عاشَ طوال حياته يتيمًا ثمَّ بعد عناء كبير التقى بأمه، دون أن أنطق، ضممتُها إلي، عانقتها بقوَّة، ثمَّ بكيت:

_أنا متعبٌ جدًا يا عزيزتي، متعبٌ جدًا.

_أتعلم لماذا؟

_مـ.. لـ.. لماذا؟!

_لأنَّكَ قاتل يا عزيزي، أنتَ قاتل.

_لا.. لا.. أنا لستُ قاتل.

_بلا أنتَ كذلك.

_لا.. نعم، أنا قاتل، لكنَّني بريء، بريء من كلِّ هذا، أنا قاتل بريء.

_استيقظ يا عزيزي، عُد لرشدك، عش كباقي البشر، لا أريد رؤيتك حزين، فهذا الأمر يحزنني.

_إن كان هذا الأمر يحزنك، فلن أكون حزين بعد الآن، لكنَّني سأبقى كما أنا، لا يمكنني أن أعش كالآخرون، لأنَّني أنا.

_بلا يمكنك، حاول، ستستطيع.

_لا أظن بأن هذا سيحدث، لكنَّني سأحاول، أعدك بأنَّني سأحاول، لن أقتل بعد الآن.

بدأت تتلاشى من أمامي شيئًا فشيئًا، نطقتُ بخوفٍ باكيٍ:

_إلى أين أنتِ ذاهبة؟! ابقِ هنا، أرجوكِ، لا تذهبي، لا تتركيني بمفردي، ابقِ هنا، لا تذهبي.

فتحتُ عيناي، ببرودة، وكأنَّني أعلم بأن ما رأيته كان حلم، بينما أنا شاردًا في الكلام الذي قالته لي، وأفكّر بكلِّ كلمة قالتها، شيئًا ما، ربَّما طلقة ناريَّة، أتت من الأمام اخترقت جسدي فتَّتت اللحم وأسالت الدماء ثمَّ خرجت من الخلف، أمسَكتُ سلاحي على الفور وكدتُ أهاجم، وسرعان ما أتت الطلقة الثانية بشكلٍ مميت لتوقفني عن إحداث زلزال في المكان، بمشهدٍ بطيء، جعلتني ألقِ بجسدي الثقيل أرضًا، فوقَ تلكَ الدماء الساخنة، دارَ بي المكان، وسَكَنَ في رأسي صوت صميم يُكاد أن يصيبني بالجنون، وصراخهم احتفالاً بمشاهدة موتي، جميع من دبَّروا لهذا الهجوم اعتقدوا بأنَّني قد فارقتُ الحياة، والحق يُقال، أنا أيضًا اعتقدتُ ذلك، انتقلتُ إلى عالمٍ ثانٍ خالٍ من الحياة، وجدتُ صديقي المتوفّي هناك، ابتسمت، ثمَّ ابتئست، ووقعتُ بينَ سؤالين:

هل أفرح لأنني ذهبتُ إليه؟

أم أحزن لأنني تركتها تواجه قباحة العالم بمفردها؟

اقتربَ نحوي وهو يبتسم، ثمَّ هَمَسَ في أذني:

_قاتل، لا تستسلم.

وصوتها أيضًا كانَ يتردَّد داخل رأسي:

_قاتل يا سهاب، قاتل يا سهاب.

حينها فتحتُ عيناي مجددًا، ومن ثمَّ أحرقتُ المكان بغضبي، أصبحوا يتساقطون أمامي واحدًا تلو الآخر، وبعدما انتهيت، سقطتُ أنا أيضًا، وبينما أنفثُ أنفاسي الأخيرة، نطقت:

_سُكرًا.

ثمَّ عدتُ لموتي، وعانقتُ غيبوبتي، وانتهى كل شيء.

يتبع...

فأنا لم أُمُت بعد